# القرآن الكريم منبع علوم العربية:
# النحو والصرف والبلاغة أنموذجا

الباحثة صارة اضوالي
طالبة باحث بسلك الدكتوراه
جامعة محمد الأول، وجدة
المغرب

**ملخص باللغة العربية:**

تسعى هذه الورقة إلى إلقاء الضوء على العلاقة السببية التي جمعت بين القرآن الكريم وعلوم العربية؛ بوصفها تمظهرا من تمظهرات روح التعالق بين العربية والقرآن، وبيان إسهامات القرآن الكريم الجليلة في تحفيز القرائح والهمم لإنتاج علوم كان لها من الأثر الحسن في اللغة العربية الشيء الكثير. ومن أهم النتائج التي خلصنا إليها هو أن القرآن الكريم كان محورا لجميع الدراسات العربية، التي استنهضت الهمم والقرائح لخدمة القرآن الكريم، فخلّفت هذا الإرث العلمي الخالد الذي استفادت منه أجيال وأجيال، وما زالت، ولولاه لما كانت هناك أي عربية، بل ولكانت العربية من منسيات التاريخ كما حدث مع جملة من اللغات التي اندثرت باندثار أهاليها وهلكت بهلاك أقوامها.

**الكلمات المفتاح:** القرآن الكريم، اللغة العربية، علوم اللغة، النحو، البلاغة.

**ملخص باللغة الإنجليزية:**

This paper seeks to shed light on the causal relationship between the Holy Qur'an and Arabic sciences. As a manifestation of the spirit of the relationship between Arabic and the Qur'an, and an explanation of the noble contributions of the Holy Qur'an in motivating the souls and enthusiasm to produce sciences that had a good impact on the Arabic language a lot .One of the most important results that we reached is that the Holy Qur'an was the focus of all Arab studies, which agitated and stimulated the hearts and minds to serve the Holy Qur'an, thus leaving behind this immortal scientific legacy that generations and generations have benefited from, and still is, and without it, there would not have been any Arabic, and even Arabic would have been forgotten. History, as happened with a number of languages that disappeared with the disappearance of their people and perished with the destruction of their people.

**Keywords**: quraan, Arabic language, language sciences, grammar, rhetoric

**مقدمة:**

اللغة نعمة من النعم التي أودعها الخالق في الإنسان، وأكرمه بها، وبموجبها فضّله على كثير من المخلوقات؛ مصداقا لقوله تعالى: "وعلّمَ آدم الأسماء كلها"[1]، وقوله تعالى: "أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ"[2].

إن من بين العناصر التي تعمل على تقوية أمة من الأمم، وزرع روح التآلف والتضامن بين أبناء الجماعة الواحدة، وتثبيت القومية التي توحد بين أفكارهم ومشاعرهم، وتعزز من كيانهم المستقل، عنصرَ اللغة؛ بل وقد تكون أهمّها وأجدَاها. وإلى هذا ألمع الباحث إبراهيم أنيس قائلا: "وليست تتم الوحدة السياسية، وتستقيم النظم الاجتماعية في شعب من الشعوب إلا على أساس الوحدة اللغوية التي تصبح للشعب بمثابة رباط سحري يجذب أفراده بعضهم إلى بعض، ويوثق الصلة بينهم، فيفكرون في عقل واحد، ويشتركون في مشاعر وأحاسيس موحدة، ويتعاونون على ما فيه خيرهم جميعا، وما يكفل لهم الأمن والاستقرار والرخاء"[3].

واللغة العربية واحدة من اللغات التي قوّت من أواصر التلاحم والارتباط بين أبنائها، وجمعت بين شتات أهلها، كيف لا، وآخر الرسالات السماوية قد اصطفتها لسانا معبرا، ولمعانيها مُبلغا، فقد زاد القرآن الكريم –الذي جاء ليكون "منهاج حياة وليكون الدستور الخالد للبشرية كلها منذ إشراقة نور الإسلام على بطاح الأرض حتى نهاية العالم"[4]– من رفعة اللغة العربية، وقطع وعدا بحفظها حتى يرث الله الأرض ومن عليها؛ "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون"[5].

لقد كان القرآن الكريم على مر العصور، وما يزال، معينا لا ينضب من الدلالات والمعاني والفهوم على اختلاف مظانها وتنوع جذورها؛ لذلك نجد أن كل من تعامل مع هذا الكتاب المقدّس وحاول فهمه، ورام استكناه جواهره وتقليبه على وجوهه لم يعد خائبا، بل فاز منه بقدر ونصيب. لهذا، كان القرآن الكريم مصدرَ إلهام لكثير من العلوم والصناعات، وفي رحابه استقامت نظريات شتّى، وترعرت ثلة من الرؤى والتصورات، وكل ذلك قام على أساس نبيل هو خدمة الدين الإسلامي، ووضع لبنة تلو الأخرى في بناء صرح الحضارة العربية الإسلامية الشامخ. إن فضل القرآن الكريم على تلك العلوم يكاد يكون من المسلمات التي لا تقبل السجال، تكفي نظرة عجلى في كتب التراث لتوقفنا على هذه الحقيقة، على الأقل، هذا ما وصلنا ممن تحدث عن أوليات نشوء علوم العربية من قبيل: علم النحو والصرف والبلاغة وغيرها. وعليه، فإن هدف هذه الورقة هو إلقاء الضوء على هذه العلاقة السببية التي جمعت بين القرآن الكريم وعلوم العربية؛ بوصفها تمظهرا من تمظهرات روح التعالق بين العربية والقرآن، وبيان إسهامات القرآن الكريم الجليلة في تحفيز القرائح والهمم لإنتاج علوم كان لها من الأثر الحسن في اللغة العربية الشيء الكثير، بل إن هذا الأثر بقي راسخا وخالدا إلى يوم الناس هذا.

وبما أن مفاتيح العلوم مصطلحاتها؛ فإن من المنهج السوي التوقفَ عند بعض المفاهيم الأساس في هذه الورقة والتي تعدّ جوهر عنوانه؛ أبرزها القرآن واللغة.

## تعريف المصطلحات الأساس:

- **القرآن: لغة واصطلاحا.**

حين نبحث في لفظة القرآن، فإننا نجد أن جمهور العلماء اختلفوا في مسألة اشتقاقها، وهل هي لفظة أصيلة أو مشتقة، مهموز أو غير مهموز. فقد كان يرى الشافعي أن القرآن اسم علم غير مشتق خاص بكلام الله تعالى، على حين يرى الأشعري والفراء والزجاج وقطرب أنه مشتق غير أنهم اختلفوا في مادة اشتقاقه"[6].

فالفراء مثلا يرى أن القرآن مشتق من القرائن لأن الآيات فيه يصدق بعضها بعضا، ويشابه بعضها بعضا وهي قرائن، ويذهب الزجاج إلى أنه وصف على فعلان مشتق من القرء بمعنى الجمع[7].

ومما نجده في بعض المعاجم قول ابن فارس: "القاف والراء والحرف والمعتل أصل صحيح يدل على جمع واجتماع. من ذلك القرية سميت قرية لاجتماع الناس فيها، ويقولون: قريتُ الماء في المِقراة؛ جمعته، وذلك الماء المجموع قريّ... وإذا هُمِز هذا الباب كان هو والأول سواء. يقولون: ما قرأتْ هذه الناقة سلًى كأنه يراد أنها ما حملتْ قط. قالوا: ومنه القرآن، كأنه سمي بذلك لجمعه ما فيه من الأحكام والقصص وغير ذلك"[8]، وقول ابن منظور الذي كان أول ما بدأ به في مادة قرأ لفظ القرآن لشرفه: "قرأه يقرَؤه ويقرُؤه قَرءا وقرآنا فهو مقروء(...) وقرأت الشيء قرآنا جمعته وضممت بعضه إلى بعض، والقَرء: الوقت، والقرء والقُرء: الحيض والطهر ضد. وذلك أن القرْء الوقت، فقد يكون للحيض والطهر"[9].

نستشف مما سبق، اختلاف العلماء في بيان حقيقة هذا اللفظ الاشتقاقية، لكن أغلبهم يذهب إلى أنه مشتق مهموز دال على معنى الجمع، قال الزرقاني: "وعلى الرأي المختار فلفظ قرآن مهموز؛ وإذا حذف همزه فإنما ذلك للتخفيف"[10].

أما اصطلاحا: فهو الكلام المعجِز المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم[11] بألفاظه العربية ومعانيه الحقة ليكون معجزة له ودستورا له ولأمته وهو الموجود ما بين الدفتين المنقول بالتواتر جملة وتفصيلا والمتعبد بتلاوته المبتدأ بسورة الفاتحة والمختتم بسورة الناس وهو خاتم الكتب السماوية[12].

**اللغة معجما واصطلاحا:**

اللغة مثل كرة على وزن فُعة، ويعود أصلها إلى لغوة على وزن فُعلة. وقيل في جمعها لغات ولغون، ومنها فِعل لغى يلغى إذا هذى[13]. وتتصل بها لفظة اللغو كما جاء في كتاب الله العزيز: "وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا"[14] أي بالباطل.

أما اصطلاحا، فإن أقدم تعريف وصلنا من كتب التراث ما ذكره ابن جني في كتابه الخصائص، فقال: "حدّ اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[15]، وبالنظر إلى أهميته، وتميز صاحبه بدقة النظر وحسه المرهف في مدارسة قضايا اللغة، نال هذا التعريف اهتماما كبيرا من لدن الباحثين؛ لأنه يشير إلى ما تتميز به اللغة من أبعاد صوتية، ثم إلى ما تضطلع به من وظيفة اجتماعية تتمثل بالدرجة الأولى في التواصل[16]. علاوة على ما سبق، نجد من الباحثين من تفطن إلى الخلفية العقدية التي تحكم تعريف ابن جني للغة، لا سيما وأن الرجلَ كان معتزليا كما تصرح كتب التراجم بذلك، يقول أحمد أبو زيد: "وركز المعتزلة في تعريف اللغة، وتصور ما هيتها، كما فعلوا في تعريف الكلام، على العناصر الموضوعية المعقولة. يشهد لذلك ما جاء في التعريف المشهور الذي وضعه ابن جني (...) هذا التركيز على العناصر الصوتية واللفظية في تعريف اللغة والكلام من الملامح البارزة في النظرة الاعتزالية إلى اللغة والبيان، وإنما دعاهم إلى ذلك ما تقرر في أصول الاعتزال من أن الكلام في حقيقته فعل لساني، ولا يعقل إلا على هذه الصورة"[17].

ويطل علينا ابن سنان الخفاجي في المائة الخامسة من الهجرة بتعريف للغة قائلا: "اللغة عبارة عما تواضع عليه القوم من الكلام"[18]. ولا يخفى ما في هذا التعريف من إشارات تقترب مما ذكره ابن جني بأن اللغة هي أصوات، هذا إذا علمنا أن ابن سنان يقصد بالكلام، هو وأصحابه من المعتزلة الحروف المنظومة والأصوات المقطعة[19]، هذا بالإضافة إلى أن التعريف يقر بأن اللغة في أصلها تواضع واصطلاح لا توقيف[20].

ويعرّف ابن حزم اللغة في كتابه "الإحكام في أصول الأحكام" بقوله: "ألفاظ يعبر بها عن المسميات وهو المعاني المراد إفهامها ولكل أمة لغتهم"[21].

أما ابن خلدون في مقدمته، فيعرف اللغة بأنها "عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام، فلابد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم"[22].

وكما أولى القدماء للغة عناية واضحة، فإن المحدثين أيضا لم يبخسوا حقها، وراحوا يقدمون تعريفات عدة تختلف باختلاف توجهاتهم ورؤاهم، وهو ما يبدو واضحا عند شتى الأنحاء اللسانية الغربية. من بين التعريفات ما نجد عند الباحث العربي محمد محمد يونس علي؛ قائلا بأنها "نظام من العلامات المتواضع عليها اعتباطا التي تتسم بقبولها للتجزئة، ويتخذها الفرد عادة وسيلة للتعبير عن أغراضه، ولتحقيق الاتصال بالآخرين، وذلك بوساطة الكلام والكتابة"[23]. واضح من هذا التعريف بأن صاحبه تأثر باللسانيات السوسيرية التي تعتبر اللغة نسقا من العلامات القائمة على علاقة الاعتباطية[24].

## مصطلح اللسان في القرآن:

وتجدر الإشارة، ما دمنا في سياق الحديث عن القرآن الكريم، إلى غياب لفظة اللغة في كتاب الله العزيز، وحضور لفظة اللسان تعبيرا عن اللغة؛ فقد ورد لفظ اللسان، بمختلف صياغاته مثل (لسان، ألسنتهم..) ومعانيه (الجارحة، اللغة، الكلام، الرسالة...)[25]، في خمسة وعشرين موضعا موزعة على سور متعددة، نذكر من ذلك، مثالا لا حصرا، قوله تعالى في سورة الشعراء: "واجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخَرِينَ"[26]، و"بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ"[27]، وقوله تعالى في سورة القصص: "وأَخِي هَارُونُ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا"[28]، وفي سورة إبراهيم قوله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ"[29] وغيرها من الآيات التي كما يتضح، اشتمالها على لفظ اللسان، وحين نعود إلى معجم التعريفات نجد صاحبه يعرف اللّسن بقوله: "ما يقع به الإفصاح الإلهي لأذان العارفين عن خطابه تعالى لهم"[30].

ملاك الأمر، يمكن القول بأن القرآن الكريم معين لا ينضب من الفهوم والمصطلحات التي يمكننا من خلالها التأصيل لها في ثقافتنا اللسانية، وخير شاهد على ذلك مصطلح اللسان الذي يمكن أن يكون خيرَ بديل عن اللغة.

## مكانة العربية قبل نزول القرآن الكريم:

من يبحث في تاريخ اللغة العربية، يجد أنها تعود إلى ما قبل العصر الجاهلي بمئات السنين، لذلك تجدهم يتحدثون في فقه اللغة عن العربية البائدة أو عربية النقوش[31]، لكنّ أقدم ما وصلنا من آثار أدبية شعرية كانت أم نثرية تتصل بالأدب الجاهلي؛ ولا يخفى علينا ما أولى أهل هذا العصر للغة العربية من عناية كبرى، كيف لا، وقد بلغوا في الفصاحة كل مبلغ، وارتقوا في سلم البيان كل ارتقاء. ومن حسن حظنا، أن التاريخ حفِظَ من ذاك كله شيئا غير يسير خصوصا في فن الشعر؛ لقد كان الشعر ديوانَ العرب، خلاصة لفكرهم، وفذلكة لتجاربهم، وعصارة لثقافتهم ونظرتهم للحياة. يقول المبرّد: "وروى أبو عبيدة قال: كان ابن عباس يقول: "إذا أشكل عليكم الشيء من القرآن فارجعوا فيه إلى الشعر فإنه ديوان العرب. وكان يُسأل عن القرآن فينشد الشعر"[32] . ويقول الزبيدي، أيضا، مشيدا بقيمة رواية الشعر: "وكذلك كانوا [الأئمة من الصحابة والراشدين] يحضون على رواية الشعر الذي هو حكمة العرب في جاهليّتها وإسلامها، وديوانَها الذي أقامته مقام الكتاب لما تقدّم من مآثرها وأيامها، فكانوا يتناشدونه في مجالسهم، ويتذاكرونه عند محافلهم"[33].

وقد ذكر ابن رشيق في عمدته قيمة الشاعر في الزمن الجاهلي ومنزلته بين أهله ومدى تمجيدهم له؛ إذ كانت تقام الولائم، وتحضّر الأعراس، "فقد كانت القبيلة من العرب إذا نَبَغ فيها شاعرٌ أتت القبائل فهنّأتها، وصنعت الأطعمة، واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر، كما يصنعون في الأعراس، ويتباشر الرجال والولدان، لأنه حماية لأعراضهم، وذب، عن أحسابهم، وتخليد لمآثرهم، وإشادة بذكرهم، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد، أو شاعر ينبغ فيهم، أو فرس تنتج".[34] وقد سجل عبد الفتاح كيليطو ملاحظة في غاية الأهمية تتعلق بمسألة الوظيفة الاجتماعية التي أداها الشاعر في قبيلته، ويظهر هذا في تلك التهنئة التي تتلقاها القبيلة من جاراتها[35].

ثم إن ما يشهد لسمو اللغة العربية في العصر الجاهلي الأسواق العربية المعروفة آنذاك، وهي "أسواق كانوا يقيمونها في أشهر السنة وينتقلون من بعضها إلى بعض"[36]؛ إذ كان يجتمع فيها دهاة العرب ونبغاؤهم ليتناشدوا الشعر؛ وفي ضوء هذا المعطى، يمكننا القول بأن هذه الأسواق كانت تتميز بطابعها الثقافي علاوة على طابعها التجاري، لذلك يقول إبراهيم أنيس: "كانت مجالا للثقافة بين القبائل، فيها تعقد المناظرات الأدبية والمساجلات من شعر أو خطابة"[37]. ويذكر الرواة أن عدد هذه الأسواق، كانت في الأرجح، ثمانية أسواق، أشهرها: عكاظ، والمجنة، وذو المجاز[38]، إلا أن سوق عكاظ كان من أعظم الأسواق لديهم؛ لأنه أسهم في توحيد الصورة اللغوية بين نخبة الفصحاء آنذاك، يقول سعيد الأفغاني: "فأعظم آثار الأسواق قبل البعثة هو هذا التوحيد الذي جرى بين القبائل العربية من عامة الأقطار. وأريد أن أنبه بصورة خاصة إلى التوحيد اللغوي، الذي كان للشعراء والحكام فيه على مدى سنين متطاولة أبلغُ الأثر، في انتقاء الألفاظ والأساليب وشيوعها بوساطة الرواة في القبائل، وإذا شئت أن أختصر ذلك كله بكلمة واحدة قلت: إن نهضة الشعر مدينة للأسواق، بل مدينة لعكاظ خاصة، عُرف لها هذا الأمر منذ الجاهلية حتى اليوم"[39].

صفوة القول، لا نقول إلا ما قاله بروكلمان في تاريخ الأدب العربي بأن شعرَ العرب كان فنا مستوفيا لأسباب النضج والكمال[40]، ولهذا اعتبرَ من أبرز مداخل دراسة لغة القرآن الكريم كما ورد عند ابن عباس رضي الله عنه الذي كان يجيب بالشعر حين يُسأل عن لفظة من ألفاظ القرآن الكريم، وعُدّ دليلا من دلائل الإعجاز. يقول عبد القاهر: "وذاك أنّا إذا كنّا نعلم أن الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن وظهرت، وابنت وبهرت، هي أن كان على حد من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر، ومنتهيا إلى غاية لا يطمح إليها بالفكَر، وكان محالا أن يعرِف كونَه كذلك، إلا من عرف الشعرَ الذي هو ديوان العرب، وعنوان الأدب، والذي لا يشكّ أنه كان ميدانَ القوم إذا تجاروا في الفصاحة والبيان، وتنازعوا فيهما قصبَ الرّهان، ثم بحث عن العلل التي بها كان التباين في الفضل، وزاد بعض الشعر على بعض، كان الصادّ عن ذلك صادا عن أن تُعرف حجة الله تعالى"[41].

ولا يُفهم مما سبق إلا الحاجة التي ألحت على المسلمين لجوءهم إلى الشعر واستعانتهم به "في فتح مغاليق الألفاظ، والأساليب الغريبة الموجودة في القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، فأكبوا عليه يروونه ويحفظونه، ويدرسون أساليبه ومعانيه، وما يدور فيه من ذكر لأيام العرب ووقائعهم. ولولا هذا الباعث الديني، لاندثر الشعر الجاهلي، ولم يصل إلينا منه شيء"[42].

وإذا كانت سوق عكاظ، أيام الجاهلية، قد ارتقت باللغة العربية درجات في سلم الفصاحة والبيان؛ فإن سوق المربد قد أتمم هذه المهمة في عصر الإسلام، وواصل الرسالة في الأدب والشعر[43].

## نزول القرآن الكريم باللغة العربية وأثره في توحيد لهجات العرب:

مما لا شك فيه أن القرآن الكريم نزل بلفظ عربي مبين على قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فهو معجزة الله الخالدة، وحجته القاطعة التي تحدى بها العرب قاطبة، فقال في محكم تنزيله: "قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَاتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا"[44]. ولعل هذا ما جعل الباحثين يصرفون جهودهم إلى البحث في الخصائص والميزات[45] التي تتسم بها العربية؛ مما جعلها لغة القرآن المختارة لمبانيه والمعبرة عن معانيه، وأهلها للثبات وعدم الاندثار. إن التاريخ ليشهد للغة العربية ما احتفظت به من أصالة ورسوخ قدم في جميع مستوياتها صوتية وصرفية ودلالية ونحوية رغم أن التطور هو سنة جارية في كل اللغات إلا أن العربية لم يكن لها من هذا التطور إلا الشيء الطفيف في جهة المعنى والدلالة، فبقيت بذلك صامدة في وجه صروف الدهر ونوائبه.

ومعلوم أن العرب قبل نزول القرآن الكريم، عُرفوا بميزة تعدد اللهجات العربية، والتي أطلق عليها القدماء اللغات، التي تختلف من حيث سماتها التعبيريةُ والصوتية، وبالرجوع إلى كتاب "الصاحبي" لابن فارس، نجده قد أحاط بكثير من الاختلافات والفوارق التي تميز لغة قريش عن غيرها[46]. واختيار ابن فارس للغة قريش، في هذا الصدد، ومقابلتها بغيرها من اللغات، يُعزى إلى ما امتازت به هذه اللغة من فصاحة وبلاغة، وهذا ما يؤكده بقوله: "أجمع علماؤنا بكلام العرب، والرواة لأشعارهم، والعلماء بلغاتهم، وأيامهم ومحالّهم أن قريشًا أفصحُ العرب ألسنةً وأصفاهم لغة، وذلك أن الله جل ثناؤه اختارهم من جميع العرب واصطفاهم، واختار منهم نبي الرحمة محمدا صلى الله عليه وسلم"[47].

وقد كان للقرآن الله العظيم فضلُ توحيد هذه اللهجات[48]، وتقوية الوحدة اللغوية بين الأقوام العربية؛ وذلك باصطفاء لغة أصفق الجميع على تميزها كونها كانت لغة الأدب والشعر قبل ذلك، يقول إبراهيم أنيس: "ولما جاء الإسلام، ونزل القرآن بتلك اللغة الأدبية قوّى من تلك الوحدة اللغوية التي كانت قد نمت وازدهرت قبل نزوله، وزاد في شمولها لأن الرغبة الدينية، وقوة الشعور الديني قد دعا كثيرا من العامة إلى تفهم الكتاب الكريم والتعبد به". ولعلّ هذا الذي جعل صبحي الصالح يشير إلى مسألة أن القرآن الكريم لم يتحدّ العرب قاطبة، بقدر ما تحدّى خاصة القوم الذين كانوا أدرى بطرائق إنتاج الكلام والتفنن في مذاهبه، وهذا نصّ صبحي الصالح: "فلا غرو بعد هذا كله إذا نزل القرآن بلغة العرب المثالية، وبارك توحدها، وسما بها إلى الذروة العُليا من الكمال بعد أن كانت لهجة محدودة لإحدى قبائل العرب، ولا عجب إذا اقتصر على تحدّي خاصّة العرب القادرين على التعبير بتلك اللغة الموحدة، ثم لا غرابة أخيرا إذا تعددت وجوه قراءاته تخفيفا على القبائل، وحلا لمعضلة تباين اللهجات"[49].

## فضل القرآن الكريم على علوم العربية: (النحو والصرف والبلاغة أنموذجا).

حفظ لنا التاريخ كثيرا من الأمم التي استجابت إلى دعوة الحفاظ على لغتها إما لدافع ديني وإما لدوافع أخرى تمليها الرغبات الإنسانية، من بينهم الهنود؛ الذين بحثوا في اللغة السنسكريتية (لغة الهند القديمة) أصواتا ومعجما ونحوا، وقد اعتبر كتاب بانيني من أنضج الدراسات اللغوية عند الهنود، وبدايةً مميزة لدراسة قضايا اللغة عندهم[50].

وعند العرب، ومنذ بزوغ فجر الإسلام، أخذ العلماء على عاتقهم مسؤولية حماية كتاب الله عز وجل من التحريف واللحن الذي قد يمسه من جهة ألفاظه ومعانيه، ولهذا، انبرى ثلة جليلة من فرسان العربية وأفذاذها للرد عن أعداء الدين والذود عن حياض الإسلام وتعاليمه، فبذلوا الغالي والنفيس في سبيل تقويم أي اعوجاج، وتصويب أي خطأ. وبالنظر إلى ما سبق، فإن جهود العرب في الدرس اللغوي نشأت تحت تأثير دافعين اثنين: الأول هو خدمة الإسلام والمحافظة على القرآن الكريم من اللحن، وتيسير سبل فهمه وقراءته على غير العرب ممن دخلوا في الإسلام من الأعاجم. والثاني هو خدمة اللغة العربية للتغلب على الثنائية الموجودة في الواقع اللغوي الحي على ألسنة العرب؛ أي الفصحى واللهجات المختلفة[51]، ينضاف إلى هذين الدافعين دافع ثالث وهو الدافع القومي بسبب اعتزاز العرب بلغتهم[52].

وحديثنا عن الدرس اللغوي عند العرب لا ينبغي أن يصرفنا عن الدور الذي لعبه القرآن الكريم أيضا في بروز علوم الشريعة لاحقا، وهذا تحصيل حاصل حقيقة، إلا أننا في هذا العرض، سنصرف اهتمامنا إلى علوم بعينها؛ وهذا الأمر يعزى إلى التجلّي الواضح لتأثير القرآن الكريم في نشأتها، وهي ثلاثة: النحو والصرف والبلاغة.

### النحو والصرف:

نشأت الدراسات اللغوية متعلقة بفهم القرآن الكريم، فكان بذلك قطبَ الرحى والمحورَ الذي دارت حوله شتى النظريات، وكتبت فيه العديد من المؤلفات. وعلم النحو واحد من تلك العلوم التي تسارع علماؤها إلى إنشائها لتحقيق هدف حفظ القرآن الكريم مما قد يشوبه من الغلط نطقا وفهما. وكثير مما روي في كتب التراجم والطبقات، يشير إلى أن الحافز الديني فرض نفسه في وضع أسس العلم وثوابته. وجدير بالإشارة ههنا، إلى أن علم النحو والصرف قاما، في البداية، متصلين، فاختلطت مباحث هذا بذاك، علاوة على حضور علوم أخرى في إطار التكامل المعرفي الذي عُرف به علماء تراثنا العربي. هذا ما نلاحظه حين نتصفح الكتب الأوائل في تاريخ التصنيف النحوي عند سيبويه، والمبرد والزجاجي وغيرهم، وإن كان يرى كمال بشر أن "الصرف العربي كان من أقل العلوم اللغوية حظا من الإجادة وحسن النظر"[53]. وربما يعود أصل هذا الاختلاط إلى ما يوجد بين العلمين من اتصال وثيق وتداخل إلى حد لا يمكن فيه الفصل بين مباحثهما؛ إذ لا قيمة للنتائج المحصل عليها من الصرف ما لم توظف تركيبيا في النحو[54]. ونضيف إلى الصرف ما يتعلق بعلم الأصوات أيضا.

وبالعودة إلى أمات الكتب، نطالع أخبارا كثيرة ترتبط بحوادث لغوية ظهر فيها فساد السليقة اللغوية وفشو اللحن؛ من ذلك ما يروى في عهد النبي صلى الله عليه وسلم حين لحن رجل في حضرته، فقال لأصحابه: ارشدوا أخاكم فقد ضل[55]، وما ذكر عند الزبيدي في طبقاته من أن الذي أوجب على أبي الأسود الدؤلي الوضع في النحو هو لحن ابنته في قولها متعجبة: ما أشدُّ الحرِّ!بضم الأول وكسر الثاني، فقال لها: قولي يا بنية: ما أشدَّ الحرَّ[56]!، أضف إلى هذا يحكي جمال الدين القفطي في طبقاته ."إنباه الرواة على أنباه النحاة" أن أبا الأسود الدؤلي سمع قارئا يقرأ قوله تعالى: "إن اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ المشرِكِينَ ورسُولُه" بكسر "رسوله"[57]، وهذه الواقعة ذكرها أبو البركات الأنباري في طبقاته لكنه عزاها إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب؛ فعقب وقال: "إن يكن الله تعالى بريئا من رسوله فأنا أبرأ منه (...) فأمر عمر رضي الله عنه أن لا يقرئ القرآن إلا عالم باللغة وأمر أبا الأسود الدؤلي أن يضع النحو"[58].

هذه الوقائع متضافرة، تؤكد أن ظاهرة اللحن في اللغة والقرآن كانت سببا وجيها فرضت على علمائنا الأفذاذ إيجاد سبل الوقاية والعلاج لورم أخذ يتفشى في جسد الواقع اللغوي بغية الحد من خطورته وسن نواميس تحفظ حدود اللسان العربي. وعليه، فقد كان الإقبال على دراسة اللغة إذًا، "علاجا لظاهرة كان يُخشى منها على اللغة وعلى القرآن وهي التي سموها "ذيوع اللحن"[59] ورغبة ملحة في ضبط نصوص القرآن الكريم، وتعليم الطلاب لغة القرآن الشريفة.

## علم البلاغة:

لا شك في أن الغموض ما زال يسُود ظروفَ نشأة البلاغة العربية عند العرب باعتبارها علمًا من علوم اللِّسان العربي؛ لذلك يصعُب من هذا المنطلق أن تُضبط بتاريخ معيَّن، أو تُنسَب إلى مفكر واحد، كما هو الحال بالنظر إلى العلوم الأخرى؛ وإنما هي في الحقيقة عمليةٌ تدريجية بطيئة، تضافرت على حدوثها عواملُ مختلفة، وتياراتٌ متنوعة.

ولكن الذي يمكن قوله، عموما، هو إن البلاغة عند العرب قديمة قدم الأدب بشعره ونثره. ولعل أقدم ما وصل إلينا كاملا من العربية يعود إلى العصر الجاهلي؛ فقد عرف هذا العصر شعراء كثيرين وخطباء وبلغاء تميزوا بحسن البيان، وبقدرتهم على تذوق الكلام العربي، والاهتداء إلى مواطن الحسن والقبح فيه، وبلغوا مكانة رفيعة في البلاغة والبيان. وهذا ما تدل عليه مجموع الملاحظات النقدية والأحكام الفطرية غير المعللة التي صدرت عن كثير من شعراء الجاهلية في الشعر؛ أمثال النابغة[60]. كانت البلاغة، في هذه الفترة، أمرا فُطر عليه العرب وهدته إليه سليقتهم، وعشقته نفوسهم، وألفته ألسنتهم وآذانهم. وعليه، لا يستطيع المتتبع لها أن يجد فيها كلاما يبين عناصر البلاغة وشروطها وقواعدها كما سيحصل لاحقا.

ومن أهم العوامل التي ساعدت على تطور البلاغة العربية وازهارها القرآن الكريم؛ هذا الكتاب العظيم الذي تحول إلى أصل استقطب العديد من العلوم العربية الإسلامية؛ ومنها علم البلاغة. فقد كان الجدل الذي نشأ خاصة حول القرآن وإعجازه من الحوافز الباعثة على التساؤل عن أسباب تفاضل الكلام وأسس بلاغته (واقعة الوليد بن

المغيرة)؛ مما أسفر عن قيام عدة دراسات تتسابق إلى بيان وجوه هذا الإعجاز مُثمرةً رؤى ونظريات وأفكارا مترامية المدى والجنى، ولعلّ نظرية النظم خير مثال على ذلك لصاحبها عبد القاهر الجرجاني.

ومع ما طرأ على البلاغة من تطور إبان صدر الإسلام، فإننا لا نجد اختلافا كبيرا مقارنة مع ما كانت عليه في العصر الجاهلي؛ إذ ظل العرب يجرون في أساليبهم على الطبع والسليقة، ويوفون الكلام حقه بحسب ما يقتضيه المقام.

وكما كانت البلاغة شديدة الصلة بموضوع إعجاز القرآن، فتناولتها كتب الإعجاز خاصة، والكتب القرآنية عامة، كذلك كانت متصلة باللغة والأدب والنقد، فقلّ أن يخلو من الإشارة إلى موضوعاتها كتاب من كتب اللغة والأدب والنقد.

هذا بالإضافة إلى عدد من العلوم والجوانب العلمية التي كان القرآن الكريم وراء نشوئها مثل الرسم الإملائي والنقط والشكل.

## خاتمة البحث:

نخلص مما سبق، إلى أن إسهام القرآن الكريم في نشأة علوم العربية كان مؤثرا للغاية، فظل بذلك محورا لجميع الدراسات التي تصبو إلى بلوغ كنه العربية، كما أسهم هذا الكتاب المقدّس في استنهاض الهمم والقرائح التي خلّفت موروثا علميا وثقافيا زاخرا يشهد له بعبقرية منقطعة النظير، استفادت منه، وما تزال، أجيال وأجيال. ومن أهم الخلاصات التي يمكننا أن نوجزها في هذا المقام ما يلي:

– للقرآن الكريم فضل عظيم في تطور اللغة العربية، فقد أسهم في نمو معجم العربية وتنوع أساليبها وهو أمر بارز، ولا شك، في مختلف الأساليب التي استعملها الذكر الحكيم فباتت متوارثة من جيل إلى جيل، الأمر الذي كان له انعكاس قوي على البنية الدلالية للغة العربية؛ حيث توسعت إلى جانب الألفاظ دائرة الدلالات والمعاني.

– سن التشريعات اللغوية التي تحفظ العربية من اللحن الذي كان متفشّيا بسبب الاختلاط مع أجناس أخرى، وهو ما سمي بعلم النحو ومعه الصرف.

– كان لدراسة إعجاز القرآن الكريم بسبب ما تميز به من أسلوب راق وفصاحة تعلو ولا يعلى عليها، الأثر البارز في نشوء علم البلاغة، فانكب العلماء يدرسون وجوه هذا الإعجاز والأسباب المحيطة به، ونتج عن ذلك وضع اللبنات الأساس في صرح البلاغة العربية الذي سيعرف ازدهارا مع توالي القرون.

ملاك الأمر، لولا القرآن لما كانت هناك أي عربية، بل ولكانت العربية من منسيات التاريخ كما حدث مع جملة من اللغات التي اندثرت باندثار أهاليها وهلكت بهلاك أقوامها. وسبحان الله القائل: "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ"[61].

## الهوامش:

[1] – سورة البقرة، الآية: 31.

[2] – سورة البلد: 8-9-10.

[3] – **اللغة بين القومية والعالمية**، إبراهيم أنيس، دار المعارف، مصر، (د. ط)، (د. ت)، ص:5.

[4] – **لمحات من تاريخ القرآن**، محمد علي الشيقر، دار المحيط للمطبوعات، العراق، (د. ط)، (د. ت) 16/2.

[5] – سورة الحجر، الآية: 9.

[6] – **القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية**، عبد العال سالم مكرم، مؤسسة علي جراح الصباح، ط2، 1978، ص: 1.

[7] – المرجع نفسه، ص: 1.

[8] – **مقاييس اللغة**، ابن فارس، مادة قرى.

[9] – **لسان العرب**، ابن منظور، مادة (قرأ).

[10] – **مناهل العرفان في علوم القرآن**، محمد عبد العظيم الزرقاني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1995، 17/1.

[11] – المصدر نفسه، 16/1.

[12] – **لمحات من تاريخ القرآن**، محمد علي الشيقر، (م. س)، 14/2.

[13] – **لسان العرب**، ابن منظور، مادة لغو.

[14] – سورة الفرقان، الآية: 72.

[15] – **الخصائص**، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق، محمد علي النجار، دار الكتب العلمية، مصر، (د. ط)، (د. ت)، 1،33.

[16] – **العربية وعلم اللغة الحديث**، محمد محمد داود، دار غريب، مصر، 2001، ص: 43.

[17] – **مقدمة في الأصول الفكرية للبلاغة وإعجاز القرآن**، أحمد أبو زيد، دار الأمان، الرباط، ط1، 1989، ص: 30.

[18] – **سر الفصاحة**، ابن سنان الخفاجي دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1982، ص: 48.

[19] – المصدرنفسه، ص: 40.

[20] – المصدر نفسه، ص: 48. يقول ابن سنان: "والصحيح أن أصل اللغات مواضعة، وليس بتوقيف".

[21] – **الإحكام في أصول الأحكام**، ابن حزم الأندلسي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1983، 46/1.

[22] – **المقدمة**، ابن خلدون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993، 295/2.

[23] – **وصف اللغة العربية دلاليا في ضوء مفهوم الدلالة المركزية**: دراسة حول المعنى ومعنى المعنى، محمد محمد يونس علي، منشورات جامعة الفاتح، طرابلس، 1993، ص:24، من كتابه: **مدخل إلى اللسانيات**، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ط1، 2004، ص: 26.

[24] – **المدارس اللسانية المعاصرة**، نعمان بوقرة، مكتبة الآداب، القاهرة، (د. ط)، (د. ت)، ص:78.

[25] – يمكن الاستزادة في الموضوع بالعودة إلى مقال "**مصطلح اللسان بين المفسرين واللغويين**"، جعفر زروالي، مجلة مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية، العدد 15، 2017.

[26] – سورة الشعراء، الآية: 84.

[27] – سورة الشعراء، الآية: 194.

[28] – سورة القصص، الآية: 34.

[29] – سورة إبراهيم، الآية: 5.

[30] – **معجم التعريفات**، السيد الشريف الجرجاني، تحقيق ودراسة/ محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، (د. ط)، (د. ت)، ص: 160.

[31] – **فقه اللغة**، علي عبد الواحد وافي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط3، 2004، ص: 79.

[32] – **الفاضل**، أبو العباس المبرد، تحقيق: عبد العزيز الميمني، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1995، ص: 10.

[33] – **طبقات النحويين، واللغويين**، الزبيدي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط2، (د. ت)، ص: 12.

[34] – **العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده**، ابن رشيق القيرواني، حققه وفصله وعلق حواشيه: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط5، 1981، 65/1.

[35] – **الأدب والغرابة: دراسات بنيوية في الأدب العربي**، عبد الفتاح كيليطو، دار توبقال، الدار البيضاء، ط8، 2011، ص:55.

[36] – **تاريخ آداب العرب**، مصطفى صادق الرافعي، راجعه وضبطه، عبد الله المنشاوي، مهدي البحقيري، مكتبة الإيمان المصورة، مصر، (د. ط)، (د. ت)، 81/1.

[37] – **في اللهجات العربية**، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط3، 2003، ص: 36.

[38] – المرجع نفسه، ص:36.

[39] – **أسواق العرب في الجاهلية والإسلام**، سعيد الأفغاني، دار الفكر، بيرو، ط3، 1974، ص: 208.

[40] – **تاريخ الأدب العربي**، كارل بروكلمان، تحقيق: عبد الحليم النجر، رمضان عبد التواب، دار المعارف، ط5، 1977، 44/1.

[41] – **دلائل الإعجاز**، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه، أبو فهر محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5، 2004، ص: 8-9.

[42] – **فصول في فقه العربية**، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط6، 1999، ص: 111.

[43] – **أسواق العرب في الجاهلية والإسلام**، سعيد الأفغاني، (م. س)، ص: 209.

[44] – سورة الإسراء، ص: 87.

[45] – ينظر مثلا: فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، دراسات في فقه اللغة، صبحي الصالح.

[46] – **الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها**، ابن فارس، علّق عليه ووضع حواشيه: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997، ص: 25.

[47] – المصدر نفسه، ص: 28.

[48] – **لغة القرآن: دراسة توثيقية فنية**، أحمد مختار عمر، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، ط2، 1997، ص: 127.

[49] – **دراسات في فقه اللغة**، صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، (د. ط)، 2009، ص: 70.

[50] – **البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر، أحمد مختار عمر**، عالم الكتب، القاهرة، ط6، 1988، ص: 59.

[51] – **العربية وعلم اللغة الحديث**، محمد محمد داود، (م. س)، ص: 79–80.

[52] – **التفكير اللغوي بين القديم والجديد**، كمال بشر، دار غريب، القاهرة، 2005، ص: 315.

[53] – **التفكير اللغوي بين القديم والحديث**، كمال بشر، (م. س)، ص: 422.

[54] – المرجع نفسه، ص: 287.

[55] – **نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة**، الشيخ أحمد الطنطاوي، دار المعارف، القاهرة، ط2، (د. ت)، ص: 16. والنص مقتبس من مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي.

[56] – **طبقات النحويين واللغويين**، الزبيدي، (م. س)، ص: 21.

[57] – **إنباه الرواة على أنباه النحاة**، جمال الدين القفطي، تحقيق: محمد أبو الفضل، دار الفكر العربي، القاهرة، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط1، 1986، 40/1.

[58] – **نزهة الألباء في طبقات الأدباء**، أبو البركات الأنباري، قام بتحقيقه: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الأردن، ط3، 1985، ص: 20.

[59] – **اللغة العربية معناها ومبناها**، تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1973، ص:11.

[60] – **الموجز في تاريخ البلاغة**، مازن المبارك، دار الفكر، (د. ط)، (د. ت)، ص: 29.

[61] – سورة الحجر، الآية: 9.